(٧)

تدريس الفلسفة للأطفال.. أصبح ضرورة تربوية

يظن البعض خطأ أن تعلم الفلسفة والتفلسف والتفكير الفلسفى مقصور على الشباب والكبار فقط، وهذا الخطأ أصبح شائعا مثلما يشيع عن الفلسفة بوجه عام أنها مجرد سفسطة فارغة من المحتوى ولا تؤدى بمن يتعلمها إلا لمزيد من الانحراف الفكرى عن جادة الصواب ولمزيد من التشكيك الذى يبعده عن الايمان للدرجة التى جعلت الناس فى مجتمعاتنا العربية ينظرون إلى الفلسفة على أنها «علم الكفر والكفار» وإلى المتخصصين فيها على أنهم مرضى بمرض معدى خطير ينبغى تجنبه!! وليس أدل على ذلك من أن بعض بلادنا العربية لاتزال تمنع تدريس الفلسفة فى المدارس والجامعات، وهذا أمر عجيب حقا لأن تراثنا العربى الإسلامى الذى يفخر به كل عربى وكل مسلم كان الأساس فيه هو تعلم الفلسفة والتفكير المنطقى والفلسفى، فقد كانا (أى الفلسفة والمنطق) هما الآداتان الضروريتان لكل من أراد الاضافة والابداع فى أى تخصص علمى آخر بما فيها علوم اللغة والدين، وكان هذا لمن لا يعلم هو الأساس للتفوق الحضارى للعرب والمسلمين على كل الأمم والشعوب طوال حقبة العصور الوسطى. ولنعلم أيضا أن سر

الأسرار وراء تخلفنا الحضارى الآن هو غياب التفكير الفلسفى والمنطقى (العلمى) عن حياتنا وعن مدارسنا وجامعاتنا إلا من «رحم ربى» حيث لا تزال مصر ودول المغرب العربى وبعض دول المشرق العربى كسوريا والعراق والاردن والكويت تدرس الفلسفة وتهتم بتعليم أبنائها طرق التفكير المنطقى والفلسفى رغم كل دعوات التخلف والتحريض ضد الفلسفة والتفلسف ورغم شيوع عبارة «بلاش فلسفة» ورغم أن البعض لا يزال يوحد بين التفكير و«الهم»، وبين التفكير و«الشر»!!

والحقيقة التى ينبغى أن نعيها ونحن فى منتصف العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين أن العالم المتقدم قد انتقل منذ سبعينيات القرن الماضى من تعليم الفلسفة لشباب المدارس الثانوية والجامعات إلى تعليمها للأطفال الصغار حيث اكتشفوا أن التعليم للصغار يقتصر على اللغة والدراسات الاجتماعية والعلمية دون أن يتعلموا بداية وقبل ذلك «التفكير» و«التفكير فى التفكير» بينما بديهيات التعليم والتعلم تقتضى أن يتعلم الصغير أولا كيف يفكر وكيف يستخدم

مهاراته العقلية فى فهم نفسه ومعرفة علاقته بالعالم من حوله وخاصة بهؤلاء الرفاق فى المدرسة الذى ينبغى أن يتعرف على مهاراتهم العقلية ويحترم قدراتهم وطريقتهم فى التفكير حتى يمكنه بعد ذلك التعامل معهم ومع كل أفراد مجتمعه التعامل الايجابى الصحيح!!

وإذا كان البعض سيسارع هنا إلى القول متسائلا ومستنكرا: وهل الطفل الذى لا يزال صغيرا وعاجزا عن التفكير ويصعب أن نصفه بالطفل المفكر يمكنه تعلم التفكير الفلسفى؟!

فإننى أسارع لأقول لهذا البعض: أنظر إلى الطفل الذى بدأ

يتكلم للتو، وستجد أن معظم كلامه تساؤلات، وأن الكثير من هذه التساؤلات تساؤلات عن اللماذا والكيف والعلل والأسباب، تساؤلات عن العلاقات والأنماط، تساؤلات عن الواقع الذى يشاهده وتساؤلات عما وراء هذا الواقع المشاهد، وهى تساؤلات عادة ما يعجز الوالدين عن الاجابة عنها بحجة أن الطفل لا يزال صغيرا ولن يفهم اجاباتهم عن هذه الأسئلة المعقدة المحرجة!! وإذا علمنا أيها السادة أن الفلسفة هى فى الأساس علم التساؤل العقلى حول قضايا الوجود وعلل الموجودات وحول طبيعة الإنسان وما يميزه عن بقية الكائنات، وعن طبيعة السلوك الأخلاقى والاجتماعى والسياسى لأدركنا أن الطفل يولد ولديه كامل الاستعداد للتفلسف أى للتفكير العقلى بل والتفكير فى التفكير! وأنه طالما قادر على اثارة السؤال فهو قادر على أن يتعلم كيف يفكر فى الاجابات حتى ولو لم يكن قادرا فى البداية على فهمها واستيعابها. وقد صدق الفيلسوف الشهير كارل ياسبرز حينما قال إن ما يتسم به الصغار من دهشة فياضة تشكل مصدرا عقليا حيويا يجدر العناية به وتدريبه، وأن التساؤلات الجادة العميقة من الطفل ونزعته الطبيعية نحو التفلسف تتلاشى إذا ما أغفلها الكبار ولم يلتفتوا إليها!!

إننا أيها السادة نقع فى خطيئة تربوية كبرى حينما نصر دون وعى على كبت قدرة ومهارة التساؤل عند الطفل لأن معنى توقف الطفل عن التساؤل عقب استمرار نهرنا له واستخفافنا بتساؤلاته وهروبنا من محاولة الاجابة عليها بما يتناسب مع قدراته الاستيعابية، معناه أننا كبتنا لديه ببساطة تنمية القدرة على التفكير العقلى وحولناه من إنسان قادر على التساؤل ومن ثم قادر على التفكير المستقل والابتكار والابداع فى

المستقبل إلى إنسان سلبى يتلقى ويحفظ عن الآخرين فى المنزل والمدرسة مايقولونه ويسلك وفقا لما يستحسونه دون أن ينشغل أثناء ذلك أو بعده بالتفكير فى مدى صواب هذه المعلومة أو تلك أو فى مدى صحة هذا الرأى أو ذاك!! أو فى أهمية طاعة الأمر فى هذا السلوك أو رفضه!!

ومن هنا فقد قال الفيلسوف اليونانى أبيقور ردا على تساؤل لأحد تلاميذه: أنه لا يوجد سن معينه لتعلم الفلسفة، فهى صالحة للتعلم فى السن الصغيرة كما هى كذلك للكبار، وهذا ما قال به الفيلسوف الأمريكى المعاصر ماثيو ليبمان (١٩٢٢ ـ ٢٠١٠ م) حينما تساءل: إذا كنا ندرس للأطفال فى المنزل والمدرسة ماهو صواب وما هو خطأ عن الأفعال، فلماذا لا ندرس لهم ماهو صواب وما هو خطأ عن الأفكار؟ ولماذا لا ندرس لهم المنطق مثلما ندرس لهم أخلاقيات السلوك؟!

والطريف أن ليبمان لم يتوقف عند هذا التساؤل الذى أدرك من خلاله أهمية التفلسف وتعليم التفكير الفلسفى والمنطقى للأطفال، وسرعان ما حول هذا الإدراك لضرورة تعليم الفلسفة للأطفال إلى تصميم برنامج فعلى لتدريس الفلسفة للأطفال وكان ذلك عام ١٩٦٩م.

وبالطبع فلم يستند هذا البرنامج على تدريس الفلسفة بالشكل التقليدى استنادا على تاريخ الفلسفة أو أراء وأفكار الفلاسفة، بل استند على مجموعة من القصص الأدبية البسيطة وذات البعد الفلسفى، وقد رتب هذه القصص ومع كل واحدة منها دليل للمعلم فى سلسلة متتابعة تتناسب مع تطور الطفل من الصف الرابع الابتدائى حتى وصل إلى الصف التاسع (أى إلى الصف الثالث الثانوى)، ثم عاد بعد ليستكمل السلسلة لتصبح شاملة على مقررات دراسية تناسب عمر الطفل منذ

التحاقه بفصول الحضانة حتى اتمامه للدراسة الثانوية. ولقد حرص ليبمان فى هذا البرنامج الرائد على اختيار القصص المناسبة لكل فئة عمرية بحيث تحتوى كل قصة على مجموعة من الشخصيات المتنوعة الأهداف والاتجاهات والتى تتيح لكل متعلم أن يقرأ دورا معينا فيها متمثلا شخصية من شخصياتها وهذه الشخصيات تمثل أنماطا مختلفة من الطلاب المتعلمين وأولياء الأمور والمعلمين ومديرى المدارس، وبالطبع فإن لكل شخصية من هذه الشخصيات أسلوبها الخاص فى التفكير وطرق مختلفة فى الاستدلال، وكذلك فإن موضوع كل قصة من هذه القصص ينطوى على أحداث ومواقف فيها عمليات استدلالية ومعرفية متنوعة؛ ففيها الحدس التلقائى كما أن فيها عمليات فكرية منطقية من الاستدلالات الاستقرائية والاستنباطية بشكل متدرج وتلقائى ليس به تصنع أو تكلف. وقد تطور الأمر لدى ليبمان حتى أسس عام ١٩٧٤م معهدا لتعليم الفلسفة للأطفال كى يقدم هذه المناهج لتنمية التفكير الفلسفى للأطفال، بحيث تحولت فصوله إلى حلقات نقاشية بين المعلم والتلاميذ حول هذه القصص المتدرجة وكذلك بين التلاميذ بعضهم البعض عن طريق مدخل تربوى معروف هو مدخل الاستكشاف والاستقصاء وهو يعتمد عل جعل غرفة الفصل بمثابة جماعة للبحث والتقصى عن طريق خلق بيئة آمنة ومشجعة على قيام المناقشات الجماعية بين المتعلمين والافصاح عن الآراء ووجهات النظر بحرية مع اتاحة الفرصة للاختلاف أو الاتفاق مع آراء الآخرين بكل شفافية وبكل موضوعية مع الحرص على الاحترام المتبادل بين الجميع. وقد أثبت التطبيق العملى لهذه الطريقة وذلك المنهج أن الأطفال الذين يخضعون له ويمارسونه تحسنت قدرتهم على التفكير المنظم ونجحوا فى التمييز

بين التفسير والتبرير وأدركوا صعوبة التمييز بين المقدمات (الأسباب) والنتائج، كما نمت لديهم القدرة على التفكير الابداعى بشكل متدرج، كما اتضحت معالم النضج المتدرج أيضا على شخصياتهم وعلاقتهم بالآخرين، كما ترسخت لديهم بعض المبادئ والقيم الأخلاقية وفهموا أبعادها، وقد ساعدهم ذلك على تنمية التفكير الذاتى المستقل واكتشف كل منهم فى نفسه قدرته على التفكير المنظم الخالى من التناقضات والقدرة على التفكير غير المتحيز (الموضوعى)، وأهمية وضرورة تقديم المبررات على كل ما يعتقد فيه.. إلخ.

وبالطبع فقد انتقلت التجربة الأمريكية من خلال جهود ليبمان ومساعديه وتلاميذه من الولايات المتحدة إلى بقية أنحاء العالم المتقدم وخاصة فى استراليا والنرويج والمانيا والنمسا وبلجيكا وكندا وأسبانيا وإنجلترا والتشيك، كما انتقل إلى الأرجنتين وماليزيا وتايوان والهند والصين وكوريا الشمالية، فقد تأسست فى هذه الدول معاهد ومراكز وبرامج عديدة لتدريس الفلسفة للأطفال فى المراحل الدراسية المختلفة مسترشدين بتجربة وبرامج ليبمان وتطوراتها، كما أبدعت بعض هذه الدول على غراره برامج جديدة تستند على قصص تناسب ثقافتها وتراثها الفكرى، كما تم استحداث وتأسيس برامج ومؤسسات لتأهيل المعلمين وتدريبهم على نموذج ليبمان ـ الذى ترجم للكثير من اللغات العالمية ـ وذلك ليكونوا مؤهلين وقادرين على تنفيذ البرنامج وتشجيعهم على اختيار الوسائل والوسائط التعليمية من القصص والأفلام والأعمال الفنية بأنفسهم التى من شأنها تحفيز التلاميذ على الاستقصاء الفلسفى. وعلى ذلك فقد أصبح تدريس الفلسفة للأطفال جزءا من الخطة الدراسية

فى مختلف المراحل التعليمية سواء فى المدارس الحكومية أو الخاصة، ويتم تدريس الفلسفة للأطفال بشكل مباشر فى بعض الدول وبشكل غير مباشر أى عبر المواد الدراسية التى يدرسها التلاميذ بشكل تكاملى فى دول أخرى. ورغم أن الفلسفة الآن تدرس بهذين الشكلين للأطفال فى أكثر من ستين دولة وبأكثر من ثلاثين لغة حول العالم إلا أن المؤسف أن الدول الإفريقية والعربية هى الأقل حظا فى الاهتمام بهذا الأمر الحيوى من الناحيتين النظرية (أى على مستوى الوعى بأهميته لدى المعنيين) أو العملية (أى ترجمة نموذج ليبمان والتدريب عليه وتنفيذه).

أما بالنسبة لمصر، فإن الأمر قد يختلف قليلا؛ حيث إن بداية الوعى بأهمية تدريس الفلسفة للأطفال قد بدأ حوالى عام ١٩٨٨م على يد د. كمال نجيب الجندى الذى قام باجراء دراسة استكشافية استهدفت معرفة مدى فاعلية برنامج لتدريس الفلسفة لتلاميذ الصفين الخامس والسادس الابتدائيين فى تنمية بعض مهارات التفكير المنطقى لديهم وقد استندت هذه الدراسة بالطبع على برنامج ليبمان. وقد أوصت هذه الدراسة المصرية الرائدة بأهمية بدء هذا البرنامج لأهميته فى اكساب التلاميذ مهارات معرفية شخصية وعقلية وكذلك بعض الجوانب القيمية المفيدة للأطفال ولمجتمعهم، كما أكدت على امكانية الاسترشاد ببرنامج ليبمان مع التنبيه على ضرورة تأسيس برامج وطنية وعربية جديدة تناسب أطفالنا وقيم مجتمعنا. وقد توالت بعد ذلك دراسات وأبحاث لعديد من الباحثين المصريين توصى كلها بأهمية أن نبدأ بتضمين المناهج الدراسية لأطفالنا التفكير الفلسفى لكنها (أى هذه الابحاث والدراسات) لم تقدم برنامجا متكاملا لتدريس الفلسفة للأطفال بالفعل. وظل الأمر يراوح مكانه مع

بعض المحاولات للتقدم هنا وهناك إلى أن تجرأ د. حسنى الهاشمى إلى مد خيط التقدم فى هذا المجال إلى آخره وقدم لنا دراسة متكاملة حول موضوع تدريس الفلسفة للأطفال ونجح فى تصميم برنامج قصصى عربى لتدريس الفلسفة للصف الخامس الابتدائى يتكامل مع المقررات الدراسية الأخرى التى يدرسها هؤلاء الأطفال وبالذات فى مواد اللغة العربية واللغة الانجليزية والدراسات الاجتماعية والقيم والأخلاق والرياضيات والعلوم، مدعما بالكثير من المواقف الحياتية والانشطة التعليمية ووسائل التقويم المختلفة. وقد اعتمد فى هذا البرنامج المقترح مدخل الحوار والعصف الذهنى والاستقصاء الفلسفى وهو مدخل يوفر استراتيجيات ومناخ مناسبين لممارسة التفكير الفلسفى بشكل عملى من جانب التلاميذ وينمى هذه المهارات لديهم. وبعد أن وضع لنا «كتاب التلميذ» فى ضوء تصوره لهذا البرنامج وآليات تنفيذه، استكمل د. حسنى هذه الدراسة المتكاملة بوضع «دليل المعلم» لهذا البرنامج. وعلى ذلك فقد أصبح لدينا بالفعل مقررا دراسيا كاملا لتدريس الفلسفة للأطفال وهذا المقرر يتوازى ويتقاطع ويتكامل مع المقررات الدراسية الأخرى التى يدرسها التلاميذ فى نفس هذا الصف الدراسى، ولم يبق إلا اتخاذ القرار بالبدء فى تنفيذ هذا البرنامج وادراج هذا المقرر الدراسى الجديد ضمن المقررات الدراسية لتلاميذ الصف الخامس الابتدائى ولو على سبيل التجريب. وحينما نكتشف أهميته وما سيضيفه من مهارات تعود على تلاميذنا ومجتمعنا بالفائدة المرجوة وهو بالفعل سيحقق هذه الفائدة، يمكننا الاستمرار فى تطوير مناهجنا الدراسية لتلاميذ كل المراحل التعليمية من دور الحضانة حتى الصف الثالث الثانوى مسترشدين بالتجارب العالمية التى سبقتنا بعد تعريبها وفقا لرؤيتنا

وقيمنا الثقافية والأخلاقية. وأعتقد أن هذه ستكون نقطة البداية الحقيقية لتطوير نظامنا التعليمى كله حيث سنضطر بالفعل وفقا لهذا المنظور التربوى الجديد إلى تغيير فلسفة التعليم ككل؛ فهو لن يكون كما كان تعليما تلقينيا جامدا، بل سيصبح تعليما ينمى مهارات التفكير المستقل والحوار، سيصبح تعليما يعطى مساحة لحرية الطالب فى جمع المعلومات بنفسه من مصادرها المختلفة، سيصبح تعليما يستخدم وسائط متعددة ولا يقوم فقط على الكتاب المدرسى، بل سيصبح الكتاب المدرسى نفسه متطورا يحض على القراءات الخارجية ويرشد المعلم والتلميذ للمصادر الأخرى للمعرفة. وباختصار فإن بداية تطبيقنا لبرنامج تدريس الفلسفة للأطفال ستكون بالضرورة هى بداية الثورة التعليمية التى ننشدها دون أن نعرف حتى الآن الطريق إليها، والطريق إليها هو هذا؛ فبدايته هو هذه الخطوة الجسورة الضرورية: بدايته تدريس الفلسفة للأطفال أى تنمية قدرة الأطفال على التفكير أولا، والتفكير المستقل المبدع ثانيا، والتفكير فى التفكير ثالثا.